مقدمـــة

حين يقدم المرء على الكتابة عن شخصية من أمثال اسماعيل صدقي باشا فانه تعتريه عدة مشاعر تجعله أقرب الى الاحجام منه الى الاقدام ، والى التأنى منه الى المبادرة ، والى التباطؤ منه الى الايقاع العادى فضلا عن الايقاع السريع وليس أقل هذه المشاعر ذلك الشعور بالخوف ، الذى يدفع اليه موقف الناس الذين باتوا يعتقدون جميعا ، بفضل ما تكرر على أسماعهم وأبصارهم أن هذا الرجل رمز للطغيان والدكتاتورية والاستهتار بالشعب واحتقار القانون والدستور واملاء الارادة ومخالفة الاجانب ، وانه صورة مجسدة لكل عيوب ما قبل الثورة ولكل ما يثير البغضاء تجاه زعماء هذا العهد .. فماذا يكون موقف الكاتب عندئذ اذا تحدث عن اسماعيل صدقي حديثا فيه بعض الانصاف ، الا أن يكون من أعداء هذا الشعب على أقل تقدير ؟

وتزداد الأمور تعقيدا اذا كان هذا المؤلف من الذين يعنون بابراز النجوانب المضيئة فى الناس كل الناس ، أو اذا كان من المعتقدين (الملتزمين) لدين يدعو رسوله الى ذكر محاسن الموتى ،

أو اذا كان من الذين لا يقبلون الامور على علاتها ، ويحاولون أن يجلوا الصدأ عن بعض الحقائق ، فمثل هذا الكاتب يجد نفسه في تيار آخر قد يعلي من شأن أفكار كثيرة حتى ان عبر عنها بانها محض أفكار ، ويعنى بابراز أمجاد كثيرة حتى ان صور المجد الذي فيها على نحو ظالم .

ومع هذا كله فقد يجد المؤلف نفســـــه مدفوعا الى التذكير بأنه لا يتخذ من اسماعيل صدقى مثلا أعلى مع أنه لم يكن فى حاجة الى ذكر مثل هذه العبارة حين ترجم فى كتب كاملة قبل هذا لاكثر من عشرة من أعلام هذا الوطن بالاضافة الى الترجمات المتفرقة التى نشرها هنا وهناك . أيكون المؤلف خائفا من هذا الذى قد قد ينطبع فى أذهان قرائه حين يجدونه ينصف رجلا أبت كل الاقلام قبل هذا أن تنصفه ؟ فليكن هذا فرضنا الى حين ، ولنمض مع مؤلف متخوف من ابراز الفضل لاسماعيل صدقى على نحو ما أبرزه من قبل لغيره .

هل يتحوط المؤلف لنفسه عند محبيه كى لا يكون من أنصار فكر عرف بأنه يهاجم الديمقراطية وتهاجمه الديمقراطية ، ويهون من قدر الشعب ويأبى الشعب الا أن يهون من قدره ، فكر يعلى من قدر نفســـه على الغير فيأبى الغير الا أن يخســـف به وبانجازاته الارض ؟

ومع هذا كله فلم لا يعترف هذا القلم بأنه ينحو منحى حرجا حتى يصل الى الحقيقة ، وانه ينبغى له الا يهاب ظل الذكرى أو أثر السمعة حين يتعرض لاقدار الرجال ، وأنه ينبغى له أن يبتغى وجه الحقيقة حين يخص هذا الرجل اليوم بمثل هذا الكتاب ، وانه يود للتاريخ كتابة تناى بنفسها عن الديماجوجية ، والفوضائية ،

والحزبية قدر المستطاع جميعا ، وانه يريد أن يلفت نظر ابناء قومه الى امجاد اهملوا تقديرها .. وافكار تهاونوا فى وزنها ، ورؤى لم ينتفعوا بها فى حينها .. ولا بعد حين ؟

* * *

لماذا يحرص المؤلف على الدفاع عن نفسه قبل الهجوم ، مادام هو يكاد يؤمن بقدر هذا الرجل وقدراته ؟ هل هو فى حاجة الى أن يذكر انه يقدس الرأى العام ؟ كل اولئك ســـــوف ترينا حقيقته الصفحات القادمة من هذا الكتاب التى ظلت المشاعر المتناقضة تسيطر على المؤلف طيلة كتابتها ، فوجد أن من الخير أن يقدم كتابه لقارئه اليوم بهذا الاعتراف ، لعل القارىء يمضى معه فى تعـــــاطف ، والتعاطف على اقل تقدير أولى من التحامل حتى لو كان على المعتقدات القديمة .

بيد أن الحقيقة تقتضينا أن نقول الآن ـــ فى ثقة ـــ ان اسماعيل صدقى لم يكن خيرا كله كما انه لم يكن شرا كله ، ولهذا فان الافراط فى فهم تقدير هذا الكتاب لاسماعيل صدقى وتأويل هذا التقدير على اى صورة من الصور التى ترتفع به عن اخطائه ، هو افراط وتأويل لا يحتمله هذا الكتاب ولا يقصد اليه هذا المؤلف ، وهو ظلم ايضا للقلم الذى أراد استجلاء الحقيقة (حتى ان كانت غير شائعة) لا قلب العقيدة الشائعة الى نقيضها تماما .

نعم فقد كان اسماعيل صدقى بشرا .. فى عهد كان البشر فيه درجات (فيما بينهم) ، وكان هو فى الطبقة الأعلى من هؤلاء (فيما يعتقد ، وفيما اعتقدوا كذلك) ، وكان فيه كل عيوب البشر ثم كل عيوب هذه الطبقة (المصطنعة) فى ذات الوقت الذى كان طليه أن يبرز كل مـــيزاته الشـــــخصية ، وكل ميزاته العقلية التى اهلته لها ظروفه وانتماءاته ومواقعه التى وصـــــل اليها .

فماذا آنس القارىء من نفسه القدرة على أن يمضى مع المؤلف فى هذا الكتاب على هذا النحو أو النسق ، فربما يساعده أن يقرأ لمؤلف مازال يمارس الطب بكل ما فيه من أساسيات تقتضى الثقة فى التشريح ، والفهم فى تقصى دواعى الأمراض ، والصبر من أجل التشخيص ، والأمل فى أن يكون ما حدث هو فعلا أخف الضررين .

واذا لم يكن فى وسع القارىء أن يجد فى نفسه مثل هذه الروح فإن فى وسعه أن يجد فى هذا الكتاب جهدا بذل المؤلف أقصى جهده فيه من أجل تجميعه وتوثيقه وترتيبه والحرص على الدقة فيه والصدق ، وعلى روح المقارنة بين المواقف والشخصيات والفكر والرأى ، وعلى الروح التى لا بد منهـا لكل من يخـوض فى تاريخ وطنه وهى روح الانتماء بالطبع ، حتى ان لم تطاوعه ظروف البحث والكتابة طيلة الاعوام الاربعة الماضية التى انشغل خلالها باعداد هذا الكتاب على هذا النحو .

د . محمد محمد الجوادى